تصاريفُ الأقوال في معاني إنزال القرآن حكما عربيا
(دراسة استقرائية استنباطية)

د. فضيلة محمد موسى الزهراني
جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين

هذا البحث القرآني يعطي تصورا في تعدد وجوه تصريف المعاني في آية فريدة من كتاب الله، هي الآية الوحيدة التي قرن الله فيها وصف إنزال القرآن عربيا كونه

كونه حكما عربياً، وهذه لفتة عميقة تدل على معان وحكم و أسـرار، تجعل نزول القرآن حكما عربيا يشمل لغته ويشمل فصل خطابه، ويشمل فصله بين الناس ويشمل هيمنته وإبطال ما عداه مما هو باطل وأن الحكم والملك عربي، بل إن أطول ملك حصل في التاريخ هو لأمة العرب. وجميع ذلك ينتج منه شرف أمة العرب، مرتبطا بشـرف القرآن، لاينفكان، وأنهم مهما ابتغوا العزة في غيره أذلهم الله، وأن العمق الحضاري لاتصال أمم المؤمنين، بالذات من هم من أهل الكتاب، قاض عليهم بمتابعة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن الأثر الممتد للغة العرب ليس مقصورا على أصالة التخاطب والدين، بل إلى حكم ينسب للدين أنزل الله به القرآن كتابا للحكم ودستورا ومنهجا للحياة أصيلا.

كلمات مفتاحية:حكما عربيا، أنزلناه، القرآن، لغة القرآن، حكم العرب.

مقدمة:

الحمد لله ربي الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسـان مالم يعلم، وصلاة ربي وسلامه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، كثيرا ما كان يستوقفني ما معنى الحكم العربي الذي نسبه الله وصفا أصيلا في نزول القرآن وقرنه به في سورة الرعد باقتران مميز بسباقه ولحاقه، وكل ما يتعلق بمحور هذه السورة المهيبة، وهو الموضـع الوحيد في القرآن الذي ربط فيه وصـف القرآن بين الحكم وكونه عربيا، والرعد في خلق الله له هيبته، والحكم في الناس له هيبته، وبعد هذه التأملات بدا لي أن أجمع تصـاريف القول في هذا المعنى وأبرز وجوهه وأستنبط نتائجه وآثاره. هذا البحث برمته متركز حول تصاريف القول في معاني قوله تعالى:چ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک گ گ گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ چ [الرعد:٣٧].

أهمية الموضوع، وأسباب اختياره:

١. سبق في مقدمة البحثأن آية الرعد هي الموضع الوحيد في القرآن، الذي ربط فيه وصف القرآن بين الحكم وكونه عربيا، وهو سياق مهيب، له أهميته البالغة، ضمن سباقه ولحاقه، بل وموضوع ومقاصد السورة كلها.
٢. رغبت في بحثه؛لما في ذلك من تحديد أصول المعاني وبيانها وتفسيرها ومعرفة التصاريف التي يمكن أن يتصرف إليها.
٣. إبراز الآثار التي يترتب عليها هذا الوصف سواء في القرآن نفسه، أو في أمة القرآن.

أهداف البحث:

١. جمع وجوه المعاني وتصريفاتها واستخراج مايمكن من ذلك، وخاصة أنها لم تسرد جميعها في كتاب واحد من كتب التفسير

٢. استنباط النتائج المترتبة على ذلك
٣. بيان أثر هذه النتائج في القرآن وعلى أمة القرآن.

خطة البحث:

المقدمة وسبق ما فيها، ومحاور البحث مشتملة على خمسة مباحث:
المبحث الأول: حكم عربي؛ يحكم على كل الأديان سواه بالبطلان.
المبحث الثاني: حكم عربي بمعنى كمال لغته.
المبحث الثالث: حكم عربي؛ يحكم على عادات الجاهلية.
المبحث الرابع: حكم عربي بمعنى ملكا عربيا.
المبحث الخامس: حكم عربي بمعنى حكمة يحكم بمناسباته في ذاته وأسرار تشريعه.
الخاتمة؛ وفيها أهم النتائج.

منهج البحث: سلكت المنهج الاستقرائي لمعاني القول، والتحليلي لأصوله، والاستنباطي لنتائجه وآثاره.

إجراءات البحث:

١. ذكر نص الآية جمع أقوال وعامة المفسرين وتصنيفها وتقسيمها على مباحث البحث.
٢. الحديث عن أصل المعنى وتحليله وربطه بالأمثلة والشواهد التي تشهد له من الروايات وربطه بالواقع ما أمكن
٣. استنباط النتائج والهدايات وبيان أثرها تحت كل معنى تصرف إليه القول في أصول كل مبحث على حده.
٤. تخريج الأحاديث، وشرح مايحتاج من المفردات والمعاني.

وبعد هذا فأسأل الله خير مسؤول أن ينفع به جامعه، وكاتبه، وقارئه، وأن يبصر هذه الأمة بشرفها، ذلك الشرف الكبير الذي ربطه الله تعالى بكتابه حكماً وذكراً:چ ۇ ۆ ۆ ۈ ۇٴ ۋ ۋ چ[الزُّخرُف:٤٤]، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينامحمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد

هذا البحث هو مشتمل على جمع للأقوال واستنباط كذلك لما يمكن أن يحمل عليه قوله تعالى:چ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ چ[الرعد:٣٧].

ولذا جرت عادة من ألفوا في هذه المعاني قديما أن تسمى بالتصاريف؛ ولذا سمى يحبن سلام كتابه في الوجوه والنظائر ((التصاريف في تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه

وتصرفت معانيه))، وهو جزء من معنى قوله تعالى:چ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ چ[طه:١١٣] . وغيرها من الآيات، وتصاريف القول في معاني الوعيد في القرآن، هو بنحو تصاريف القول في معاني إنزال القرآن حكما عربيا، وكتصاريف القول في معنى مفردة "أمة" أو غيرها.

ويمكن من خلال اللغة وأصولها بيان معنى التصاريف، على النحو التالي:(صرف) معظم بابه يدل على رجع الشيء من ذلك، والتصريف رد أحد الشيئين إلى الآخر، وصرف الكلام تزيينه؛ لأنه يصرف الأسماع إلى استماعه[1]. ومن هذا نجد أن الله تعالى صرَّف القول في القرآن، وتصرفت معاني القول الواحد فيه؛ ليكون أبلغ وأثرى وأكثر تدفقا لجمال وزينة بحور أقواله ومحتملات ما يحويه من معان وأسرار وحكم.

وبناء على ما سبق وماورد في كتاب التفسير، متفرقة، وليس في كتاب واحد، فقد تصرفت الأقوال في معاني إنزال القرآنحكما عربيا إلى خمسة أقوال ـ هي عناوين مباحث هذا البحث ـ :

القول الأول: حكم عربي؛ يحكم على كل الأديان سواه بالبطلان.

القول الثاني: حكم عربي بمعنى كمال لغته.

القول الثالث: حكم عربي؛ يحكم على عادات الجاهلية.

القول الرابع: حكم عربي بمعنى ملكا عربيا.

القول الخامس: حكم عربي بمعنى حكمة يحكم بمناسباته في ذاته وأسرار تشريعه.وبيانها على التتابع في مباحث البحث، وبالله التوفيق.

المبحث الأول

حكم عربي يحكم على كل الأديان سواه

چڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ چ[الرعد:٣٧].

في هذه الآية حكم قاطع أن الله أنزل القرآن حكما عربيا، وأول وألى معاني هذا الوصف، أنه حكم مهيمين على ما سواه من الأديان، يحكم ببطلانها، وعدم صلاحيتها، وما كان في أصله منها سماويا؛ كالتوراة والإنجيل، فإن الحق الذي فيهما، مما بقي من بقايا الملة والحق، هو ما صدقه القرآن وحكم بصحته، وأما ما حكم عليه بالبطلان من ذلك، فقطعا هو باطل، ويؤيد ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم:" بَلِّغُوا عَنِّي ولوآيَةً،وَحَدِّثُوا عن بَنِيإِسْرَائِيلَوَلَاحَرَجَ،وَمَنكَذَبَعَلَيَّمُتَعَمِّدًا،فَلْيَتَبَوَّأْمَقْعَدَهُمِنَالنَّارِ"

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: (٣/ ٣٤٢ ، ١٤٣)، لسان العرب، لابن منظور مادة (صرف)

(١)قالأبوعبيدة رحمه الله : "ديناً عربيّاً"(٢).

قال الإمام الطبري رحمه الله: «كذلك أيضا أنزلنا الحكم والدين حكما عربيا، وجعل ذلك عربيا، ووصفه به لأنه أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو عربي، فنسب الدين إليه إذ كان عليه أنزل، فكذب به الأحزاب »(٣).

وبنحوه قال الثعلبي:

«وَكَذلِكَأَنْزَلْناهُحُكْماًعَرَبِيًّاوكماأنزلناإليكالكتابيامحمدوأنكرهاالأحزاب، كذلك أيضا أنزلنا الحكم والدين حُكْماً عَرَبِيًّا وإنما وصفه بذلك لأنه أنزل على محمد وهو عربي، فنسب الدين إليه إذ كان منزلا عليه فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا،....ومن الأحزاب مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ وذلك أنهم آمنوا بسورة يوسف وقالوا إنها واطأت كتابنا وهذا قول مجاهد وقتادة»(٤).

وكذلك البغوي: «يَقُولُ: كَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ يَا مُحَمَّدُ، فَأَنْكَرَهُ الْأَحْزَابُ، كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا الْحَكَمَ وَالدِّينَ عَرَبِيًّا»(٥).

ونص عليه الزمخشري بقوله:« وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ ومثل ذلك الإنزال أنزلناه مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه، والإنذار بدار الجزاء»(٦).

ويتبين بهذا تواطؤ هذه النصوص على أن من أهم معاني الحكم العربي أنه دين عربي، وحكم عربي، فدل ذلك على أن الدين والحكم عربيان، وهما حاكمان لاينفكان، بلسان الحال ولسان المقال، والدين العربي هو أصل الحكم العربي، والحكم فرع من الدين.

ولاشكأن هذا شرف في الحكم، لايدانيه شرف، قال ابن كثير: « يَقُولُ تَعَالَى: چ گ گ گ چوَهُمْ قَائِمُونَ بِمُقْتَضَاهُ چ ڤ ڤ ڤچأَيْ: مِنَ الْقُرْآنِ لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى صِدْقِهِ وَالْبِشَارَةِ بِهِ،...وَقَوْلُهُ: چ ڃ ڃ ڃ چ چچأَيْ: وَمِنَ الطَّوَائِفِ مَنْ يُكَذِّبُ بِبَعْضِ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: {وَمِنَ الأحْزَابِ} الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم٣٤٦١ .
(٢) زاد المسير في علم التفسير: (٢/ ٤٩٩).
(٣) تفسير الطبري: (١/ ٥٥٧)، وينظر: الجامع لأحكام القرآن:(٩/ ٣٢٦).
(٤) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثعلبي: (٥/ ٢٩٦)
(٥) تفسير البغوي:(٤/ ٣٢٣)
(٦) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:(٢/ ٥٣٣)، قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل :(٢/ ٢٨٢):"سورة الرعد لم يتقدم فيها شيء من القصص الإخبارية وإنما المتقدم فيها تفاصيل أحكام مرجعها بجملتها إلى اختلاف أحوال المكلفين جرياً على ما سبق من قضائه فيهم، وتفصيل أحوالهم بحسب ما قدره سبجانه في أزله وما حكم به عليهم كقوله سبحانه: چ ب ب ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀچ(الرعد: ١٩).... وكل ما تقدم فهو حكمه السابق في خلقه، فأعقب هذا بقوله: چ ڈ ڈ ژ ژچ (الرعد: ٣٧)".

مَا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ. وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ....وَقَوْلُهُ: چ ڈ ڈ ژ ژ أَيْ: وَكَمَاأَرْسَلْنَاقَبْلَكَ الْمُرْسَلِينَ، وأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ مِنَ السَّمَاءِ، كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ مُحْكَمًا مُعْرَبًا، شَرَّفْنَاكَ بِهِ وَفَضَّلْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبِينِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الَّذِي:چ گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ں ں ڻ چ [فُصِّلَتْ: ٤٢] »[١].

ومن الشرف أن ثم مشتركاً كلياً في هذا الدين والحكم العربي في شأن التوحيد وكليات الملل وقطعيات الشرائع، قال ابن عاشور: «وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ هَذَا مَا يُنْكِرُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِذْ هُوَ مِمَّا كَانُوا فِيهِ سَوَاءً مَعَ الْإِسْلَامِ. عَلَى أَنَّ قَوْله: وَإِلَيْهِ مَآبِ يَعُمُّ الرُّجُوعَ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْبَعْثُ.وَهَذَا مِنْ وُجُوهِ الْوِفَاقِ فِي أَصْلِ الدِّينِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ»[٢].

وقال:«لَمَّا ذَكَرَ حَالُ تَلَقِّي أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ لِلْقُرْآنِ عِنْدَ نُزُولِهِ عَرَّجَ عَلَى حَالِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ بِطَرِيقَةِ التَّعْرِيضِ بِسُوءِ تَلَقِّي مُشْرِكِيهِ لَهُ مَعَ أَنَّهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِحُسْنِ تَلَقِّيهِ إِذْ نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ مُشْتَمِلًا عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَتَنْوِيرُ عُقُولِهِمْ. وَقَدْ جُعِلَ أَهَمَّ هَذَا الْغَرَضِ التَّنْوِيهُ بِعُلُوِّ شَأْنِ الْقُرْآنِ لَفْظًا معنى. وَأُدْمِجَ فِي ذَلِكَ تَعْرِيضُ بِالْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ.وَالْقَوْلُ فِي اسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: وَكَذلِكَ مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: چ پ پ پ ڀ چ[سُورَة الرَّعْد: ٣٠] .وَضَمِيرُ الْغَائِبِ فِي أَنْزَلْناهُ عَائِدٌ إِلَى بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ فِي قَوْله: يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ»[٣].

وكما يحكم في الأصول فإنه يحكم في الفروع: قال ابن عباس رضي الله عنه:" يريد ما فيه من الفرائض"[٤].

وذكر الرازي وجهين حسنين يؤيدان ما سبق فقال من مسائل الآية:

مسألة: الْقُرْآنُ مُشْتَمِلٌ عَلَى جَمِيعِ أَقْسَامِ التَّكَالِيفِ، فَالحكم لَا يُمْكِنُ إِلَّا بِالْقُرْآنِ، فَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ سَبَبًا لِلْحُكْمِ جُعِلَ نَفْسَ الحكم عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ.

ومسألة: أَنَّهُ تَعَالَى حَكَمَ عَلَى جَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ بِقَبُولِ الْقُرْآنِ وَالْعَمَلِ بِهِ فَلَمَّا حَكَمَ عَلَى الْخَلْقِ بِوُجُوبِ قَبُولِهِ جَعَلَهُ حُكْمًا[٥].

قال الآلوسي: «من حيث إنه فيه تأسيس محض أولى منه هناك، واقتصر في الإرشاد

(١) تفسير ابن كثير:(٤/ ٤٦٧)
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور:(١٣/ ١٥٩).
(٣) التحرير والتنوير:(١٣/ ١٥٩). وينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي:(١٢/ ٣٥٤)، روح المعاني، للآلوسي:(٧/ ١٤٧).
(٤) زاد المسير في علم التفسير، :(٢/ ٤٩٩)
(٥) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للرازي:(١٩/ ٤٨)

على جعل الكلام إلزاما وجعله نكتة أمره صلى الله عليه وسلم بأن يخاطبهم بذلك، وذكر أن قوله تعالى: وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا شروعفيردإنكارهملفروعالشرائعالواردةابتداءأوبدلاًمنالشرائعا لمنسوخةببيانالحكمةفيذلكوأنالضميرراجع- لماأنزلإليك- والإشارةإلىمصدرأَنْزَلْنَاهُأوأُنْزِلَإِلَيْكَ أي مثل ذلك الإنزال البديع الجامع لأصول مجمع عليها وفروع متشعبة إلى موافقة ومخالفة حسبما يقتضيه قضية الحكمة أنزلناه حاكما يحكم في القضايا والواقعات بالحق ويحكم به كذلك،والتعرض لهذا العنوان مع أن بعضه ليس بحكم لتربيته وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه... ومنهم من اقتصر على اشتمال الإنزال على أصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيده على رأي قوله تعالى: قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ إلى آخره، وتعقب بأنه يأباه التعرض لاتباع أهوائهم وحديث المحو والإثبات وإنه لكل أجل كتاب فإن المجمع عليه لا يتصور فيه استتباع والاتباع، وقيل: إن الإشارة إلى إنزال الكتب السالفة على الأنبياء عليهم السلام، والمعنى كما أنزلنا الكتب على من قبلك أنزلنا هذا الكتاب عليك لأن قوله تعالى: وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتابَ يتضمن إنزاله تعالى ذلك وهذا الذي أنزلناه بلسان العرب كما أن الكتب السابقة بلسان من أنزلت عليه :چگ گ گ گ گ گ گ ڳچ[إبراهيم: ٤] وإلى هذا ذهب الإمام. وأبو حيان، وقال ابن عطية: المعنى كما يسرنا هؤلاء للفرح وهؤلاء لإنكار البعض أنزلناه حكما إلى آخره وليته ما قيل، وإلا بلغ الاحتمال الأول مما أشرنا إليه»[(١)].

والوصف العربي وصف لازم، فيه لطائف معان وأحكام، نافعة محددة للعلاقات سواء للعرب أم لغيرهم؛ ولذا قال الآلوسي: «والتعرض لكونه عربيا أي مترجما بلسان العرب للإشارة إلى أن ذلك إحدى مواد المخالفة للكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة إذ بذلك يسهل فهمه وإدراك إعجازه يعني بالنسبة للعرب، وأما بالنسبة إلى غيرهم فلعل الحكمة أن ذلك يكون داعيا لتعلم العلوم التي يتوقف عليها ما ذكر»[(٢)].

(١) روح المعاني، للآلوسي:(٧/ ١٥٨).
(٢) روح المعاني، للآلوسي:(٧/ ١٥٨).

المبحث الثاني

حكم عربي بمعنى كمال لغته

حكم عربي بمعنى كمال لغته يحكم على اللغات ولا تحكم اللغات عليه،فيحكم على لغات العرب ولهجاتها ذاتها أن لغة قريش هي أفصح لغةولذا يسمى المفصل حكم عربي لم ينزل مثله في العطيات الإلهية للكتب مثله، قال صلى الله عليه وسلم" وفضلت بالمفصل"(١). وأعرب عربيته القرآن فيه.

ومن الأمثلة كذلك أنه يحكم على خلاف المعاني للمفردات، فمثلا عسعس لاتأتي الا في معنى يختلف عن سياق الضد؛ لأنه مشترك لفظي،أما القرآن فأقسم بالمعنى وضده ولايعرف هذا في لغة العرب.أن يأتي بالشيء وضده ثم يكون صالحا في السياق، إلا في القرآن.

قال الثعلبي:« قال قوم معنى الآية: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغناهم كذلك أنزلنا عليك القرآن حُكْماً عَرَبِيًّا»(٢).

قال البغوي: « وَقِيلَ: نَظْمُ الْآيَةِ: كَمَا أُنْزِلَتِ الْكُتُبُ عَلَى الرُّسُلِ بِلُغَاتِهِمْ، فَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ حُكْمًا عَرَبِيًّا»(٣). قال القرطبي: «أَيْ بِلِسَانِ الْعَرَبِ، ويريد بالحكم ما فيه»(٤).

وقال الرازي:«اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى شَبَّهَ إِنْزَالَهُ حُكْمًا عربيا بما أنزل إلى ما تَقَدَّمَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، أَيْ كَمَا أَنْزَلْنَا الْكُتُبَ على الأنبياء بلسانهم، كذلك أنزلنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ. وَالْكِنَايَةُ فِي قَوْلِهِ: أَنْزَلْناهُ تَعُودُ إِلَى «مَا» فِي قَوْلِهِ: يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ يَعْنِي الْقُرْآنَ»(٥).

وبهذا يتبين أن حكم القرآن، نازل بالعربية، ومشتمل على اللسان الناطق بالعربية، وهذا كمال تام، حالا ومقالا.

وينبه إلى أن ماقاله الزمخشري في المعنى بأنه حكمة عربية مترجمة بلسان العرب. وذكرها الرازي(٦). أنهم لايقولون بنزوله حكما عربيا، بل يقولون حكمة مترجمة منقولة إلى لغة العرب سواء مخلوقا عند المعتزلة أو عبارة أو حكاية عند الأشاعرة، وليس كما عند أهل السنة أنه نازل حقيقة حكما عربيا، وهذا من استدلالاتهم كما نقده عليهم

(١) السلسلة الصحيحة ، للألباني، ص٥٩ وحسنه.
(٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن:(٥/ ٢٩٦).
(٣) تفسير البغوي:(٤/ ٣٢٣)، وينظر: زاد المسير في علم التفسير:(٢/ ٤٩٩).
(٤) الجامع لأحكام القرآن:(٩/ ٣٢٦).
(٥) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير:(٤٨/١٩).
(٦) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل :(٢/ ٥٣٣، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير:(١٩/ ٤٨).

الآلوسي[1].

المبحث الثالث

حكم عربي بمعنى ملكا عربيا

في حديث هرقل، أن هرقلاً سأل أبا سفيان عدداً من الأسئلة، ومن ضمن الأسئلة، مانصه في البخاري:" وسَأَلَهُ عَنِ العَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هذا مُلْكُ هذِه الأُمَّةِ قدْ ظَهَرَ. ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إلى صَاحِبٍ له برُومِيَةَ، وكانَ نَظِيرَهُ في العِلْمِ، وسَارَ هِرَقْلُ إلى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حتَّى أتَاهُ كِتَابٌ مِن صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ علَى خُرُوجِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّهُ نَبِيٌّ، فأذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ في دَسْكَرَةٍ له بحِمْصَ، ثُمَّ أمَرَ بأبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يا مَعْشَرَ الرُّومِ، هلْ لَكُمْ في الفلاحِ والرُّشْدِ، وأنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ، فَتُبَايِعُوا هذا النبيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إلى الأبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وأَيِسَ مِنَ الإيمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وقَالَ: إنِّي قُلتُ مَقالتي آنِفًا أخْتَبِرُ بهَا شِدَّتَكُمْ علَى دِينِكُمْ"[2].

والشاهد من الرواية أعلاه، قوله: "هذا مُلْكُ هذِه الأُمَّةِ قدْ ظَهَرَ"، بعد قوله:" وسأله عن العرب"، فدل على أن ثم اقترانا بين ملك العرب، وبين إنزال القرآن وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يشير إلى جزء من المعاني الواردة في آية سورة الرعد بالاقتران كذلك.

وفي الرواية المشهورة: مر أبو ياسر بن أخْطب برسول الله صلى الله عليه و سلم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة(ألم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ) ، فأتى أخَاه حُيَيّ بنَ أخطب من يَهودَ فقال: تعلمون والله ، لقد سمعتُ محمدًا يتلو فيما أنزل الله عز وجل عليه(الم ذَلِكَ الْكِتَابُ) فقالوا: أنت سمعته؟ قال: نعم! قال: فمشى حُيَيُّ بن أخطب في أولئك النَّفر من يهودَ إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقالوا: يا محمد، ألمْ يذكُرْ لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك"ألم ذلك الكتاب"؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: بلى! فقالوا: أجاءك بهذا جبريلُ من عند الله؟ قال: نعم! قالوا: لقد بعث الله جل ثناؤه قبلك أنبياء، ما نعلمه بيَّن لنبيّ منهم، ما مدَّة ملكه وما أكْل أمَّته غيرَك! فقال: حُييّ بن أخطب، وأقبلَ على من كان معه فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدَى وسبعون سنة. أفتدخلون في دين نَبيّ إنما مدّة مُلكه وأكْل أمّته إحدى وسبعون سنة ؟ قال: ثم أقبلَ على رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال: يا محمد، هل مع هذا غيرُه؟ قال: نعم ! قال: ماذا؟ قال:(ألمص). قال: هذه أثقلُ وأطولُ، الألف واحدة، واللام ثلاثون،

(١) روح المعاني، للآلوسي:(٧/ ١٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، برقم٧

والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه مائة وإحدى وستون سنة. هل مَع هذا يا محمَّد غيره؟ قال: نعم ! قال: ماذا؟ قال:(ألر). قال: هذه والله أثقلُ وأطولُ. الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة، فقال: هل مع هذا غيرُه يا محمد؟ قال: نعم،(ألمر)، قال: فهذه والله أثقل وأطولُ، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة. ثم قال: لقد لُبِّس علينا أمرك يا محمَّد، حتى ما ندري أقليلا أعطيتَ أم كثيرًا؟ ثم قاموا عنه. فقال أبو ياسر لأخيه حُيي بن أخطب، ولمن معه من الأحبار: ما يُدْريكم لعلَّه قد جُمع هذا كله لمحمد، إحدى وسبعون، وإحدى وستون ومائة، ومائتان وإحدى وثلاثون، ومائتان وإحدى وسبعون، فذلك سبعمائة سنة وأربع وثلاثون! فقالوا: لقد تشابه علينا أمره! ويزعمون أنّ هؤلاء الآيات نزلت فيهم:(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ).[1]

وبهذا يتبين أن هذه المرويات تدل أن ثم علاقة بين كون القرآن حكما عربيا، وملك هذه الأمة، فنسأل الله أن يرد الأمة إليه ردا جميلا.

المبحث الرابع
يحكم على عموم عادات الجاهلية، والموروثات الباطلة

يحكم على عادات الجاهلية اما بالتحويل إن كانت أهواء أو الإقرار لو صحت معدناويؤيد هذا لحاق الآية، وقد قال الطبري: «ثم نهاه جل ثناؤه عن ترك ما أنزل إليه واتباع الأحزاب، وتهدده على ذلك إن فعله، فقال: ولئن اتبعت يا محمد أهواءهم، أهواء هؤلاء الأحزاب ورضاهم ومحبتهم، وانتقلت من دينك إلى دينهم، ما لك من يقيك من عذاب الله إن عذبك على اتباعك أهواءهم، وما لك من ناصر ينصرك فيستنقذك من الله إن هو عاقبك »[٢].

وقال الثعلبي:«ثم توعده على إتباع هوى الأحزاب فقال وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ قيل بما شاء الله، وقيل في أهل القبلة لأنّه ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ»[٣]. {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ} في قبول ما دعوك إليه من مِلَّة آبائك، قاله مقاتل. وَقِيلَ: في

(1) أرجه الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن،: (٢٢١/١)
(٢) المصدر السابق: (١٣/ ٥٥٧)
(٣) الكشف والبيان عن تفسير القرآن: (٥/ ٢٩٦)، وينظر: روح المعاني: (٧/ ١٥٨).

صلاتك إلى بيت المقدس بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ أن قبلتك الكعبة، قاله ابن السائب[١].
وقال الزمخشري: «كانوا يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمور يوافقهم عليها منها أن يصلى إلى قبلتهم بعد ما حوّله الله عنها، فقيل له: لئن تابعتهم على دين ما هو إلا أهواء وشبه بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج القاطعة، خذلك الله فلا ينصرك ناصر، وأهلكك»[٢]
قال ابن كثير: « وَهَذَا وَعِيدٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَّبِعُوا سُبُلَ أَهْلِ الضَّلَالَةِ بَعْدَمَا صَارُوا إِلَيْهِ مَنْ سُلُوكِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَالْمَحَجَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، عَلَى مَنْ جَاءَ بِهَا أَفْضَلُ الصلاة والسلام»[٣].
وبهذا يتبين أن هذه الموروثات والأهواء؛ سواء عند قريش من عادات الآباء من الشرك وغيره، أو عند اليهود في أمر القبلة أو غيرها أن القرآن حكم عليها يقضي عليها ويبطلها ويزيلها، ولا تقضي هي عليه، بأي لغة كانت، وفي أي كتاب كان قبل القرآن، أو ابتدعه مبتدع بعده.
وقد ذكر ابن عاشور طرفا من هذه الأهواء والمقترحات، بعطف الجملة:«بِبَيَانِ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يَأْتِي بِآيَاتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ عَلَى مُقْتَرَحَاتِ الْأَقْوَامِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَالْجُمْلَةُ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ :چ ڈ ڈ ژ ژچ[الرَّعْد: ٣٧].وَأُدْمِجَ فِي هَذَا الرَّدّ إِزَالَةُ شُبْهَةٍ قَدْ تَعْرِضُ أَوْ قَدْعَرَضَتْ لِبَعْضِ الْمُشْرِكِينَ فَيَ طْعَنُ ونَ أَوْ طعن وافِي نبوءة مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ يَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ وَأَنَّ شَأْنَ النَّبِيءِ أَنْ لَا يَهْتَمَّ بِالنِّسَاءِ. قَالَ الْبَغَوِيُّ: رُوِيَ أَنَّ الْيَهُودَ وَقِيلَ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَيْسَتْ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا فِي النِّسَاءِ اه» [٤].

المبحث الخامس
حكم عربي بمعنى حكمة يحكم بمناسباته في ذاته وأسرار تشريعه

حكم عربي بمعنى حكمة يحكم بمناسباته في ذاته وأسرار تشريعه بما له من حكمة بالغة .

والحكم في اللغة يأتي بمعنى الحكمة؛ لأن أصلهما واحد، قال ابن فارس: « الْحَاءُ وَالْكَافُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْمَنْعُ. وَأَوَّلُ ذَلِكَ الْحُكْمُ، وَهُوَ الْمَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ. وَسُمِّيَتْ

(١) تفسير البغوي: (٤/ ٣٢٣)، زاد المسير في علم التفسير: (٢/ ٤٩٩).
(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل :(٢/ ٥٣٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم:(٤/ ٤٦٧).
(٤) التحرير والتنوير:(١٣/ ١٦٢).

حَكَمَةُ الدَّابَّةِ لِأَنَّهَا تمنعها :حَكَمْتُ السَّفِيهَ وَأَحْكَمْتُهُ، إِذَا أَخَذْتَ عَلَىيَدَيْهِ. ويقال وَالْحِكْمَةُ هَذَا قِيَاسُهَا، لِأَنَّهَا تَمْنَعُ مِنَ الْجَهْلِ»[1].ويتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، قال الرازي: «تسميته بالحكم والحكمة:...الْحُكْمُ، وَالْحِكْمَةُ، وَالْحَكِيمُ، وَالْمُحْكَمُ، أَمَّا الْحُكْمُ فَقَوْلُهُ: چ ڈ ڈ ژ چ[الرَّعْدِ: ٣٧] وَأَمَّاالْحِكْمَةُفَقَوْلُهُ:چ ئا ئا چ[الْقَمَرِ: ٥] وَاذْكُرْنَ مَايُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ [الْأَحْزَابِ: ٣٤] وَأَمَّاالْحَكِيمُفَقَوْلُهُ: چ ڤ ڤ ڤ چ[يس: ١، ٢] وَأَمَّا الْمُحْكَمُ فَقَوْلُهُ:چ ڳ ڳ ڳ چ[هود: ١] .معنى الحكمة:وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْحِكْمَةِ، فَقَالَ الْخَلِيلُ: هُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْإِحْكَامِ وَالْإِلْزَامِ، وَقَالَ الْمُؤَرِّجُ: هُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ حِكْمَةِ اللِّجَامِ، لِأَنَّهَا تَضْبِطُ الدَّابَّةِ، وَالْحِكْمَةُ تَمْنَعُ مِنَ السَّفَهِ» [2].

قال الآلوسي: «واختار الطبرسي أن معنى حكما حكمة كما في قوله تعالى: «وآتيناه الحكم والنبوة» وهو أحد أوجه ذكرها الإمام»[3].

وبهذا يتبين أن ثم علاقة بين كون القرآن حكما عربيا وحكمة عربية، بل هو مشتمل بحكمه العربي على جميع أنواع الحكم والمناسبات والأسرار، في نفسه وفي صلاحيته إلى يوم القامة.

الخاتمة

أحمد الله وأثني عليه بما هو أهله، فقد مرت بي رحلة في طلب تصاريف القول في معاني إنزال القرآن حكما عربيا في عامة كتب السلف والتفسير، وخرجت من البحث بعدد من النتائج، والتوصيات:

أهم نتائج البحث:

١. نتج من البحث أن معنى إنزال القرآن حكما عربيا يتصرف إلى خمسة أو ستة أقول على التفصيل.
٢. أن أشهر القولين أن المراد بالحكم العربي الدين والحكم في الأصول والفروع، والقول الثاني أن المقصود نزل بلسان العرب، كما كان كل قوم قبل.

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس:(٩١/٢) وينظر لسان العرب مادة (حكم)
(٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، للرازي:(٢/ ٢٦١)
(٣) روح المعاني، للآلوسي:(٧/ ١٥٨).

٣. نتج من البحث أن شرف أمة العرب، هو شرف مرتبطا بشرف القرآن، لا ينفكان، وأنهم مهما ابتغوا العزة في غيره أذلهم الله.
٤. إن العمق الحضاري لاتصال أمم المؤمنين، بالذات أهل الكتاب، قاض عليهم بمتابعة النبي صلى الله عليه وسلم، وقاض بتعلم ما يقيمون به دينهم من العربية.
٥. لن يجتمع اليهود ولا النصارى ولا غيرهم مع أمة محمد على حكم واحد، ولا يمكن أن نتقارب معهم في هذا؛ لأن الحكم والدين حكم عربي.
٦. إن الأثر الممتد للغة العرب ليس مقصورا على أصالة التخاطب والدين، بل إلى حكم ينسب للدين أنزل الله به كتاب الحكم ودستوره حكما عربيا، وأن أطول ملك حصل للأمم هو بكون القرآن حكما عربيا.

أهم التوصيات:

أوصي بترجمة هذه المعاني إلى اللغات الأخرى، بعد تحرير حاجات الأمم وعلاقتهم بنا.

أسأل الله أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن يهيّء لنا من أمرنا رشداً.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين